

تجديد فقه السيرة (الهجرة والفتح نموذجاً)

أ.مشارك - قسم الدراسات الإسلامية -
جامعة الزعيم الأزهري

د. حسان صديق الفاضل

المستخلص:

تبرز أهمية هذه الدراسة بالنظر إلى ما تحتويه من أهداف تسليط الضوء على خصائص النبي (ﷺ) ومظاهر التأييد والدلالات الإعجازية في أحداث الهجرة النبوية، وتتمثل مشكلة هذه الدراسة في الكشف على أن السيرة النبوية ليست قصصاً وحكاوي، بل هي جملة من الحقائق العلمية ثبتت بالنصوص القطعية بما يتعاضد الاعتقاد بها والإيمان التام مع التسليم. اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي بإثبات الدلالات الإعجازية لتقريب المعنى وإيضاح المقصد، ومن أبرز ما توصلت إليه من نتائج أن الهجرة تعتبر نقطة تحول في حياة المسلمين، غيرت معالم الحياة ورسمت صورة حقيقية وخارطة طريق لمستقبل الإسلام.

Abstract :

The importance of this study is highlighted by looking at the objectives it contains to shed light on the characteristics of the Prophet (may God bless him and grant him peace), the signs of support and the miraculous connotations of the events of the Prophet's migration. Scientific facts have been proven by definitive texts, including belief in them and complete faith with admission. In this study, I followed the historical and analytical method by proving the miraculous connotations to approximate the meaning and clarify the purpose. And I drew a real picture and a road map for the future of Islam.

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد قائد القادات وسيد السادات النبي سمح الشمائل والصفات، أشرف الأنبياء نصاباً، وأبينهم خطاباً، وأفضلهم مولداً وهجرة وعتره وأصحاباً، وعلى آله وأصحابه الذين هاجروا لنصرته ونصروه في هجرته فنعم المهاجرين ونعم الأنصار.

تعتبر السيرة النبوية مصدراً تشريعاً لكل أحكام وتشاريع الإسلام، بدليل أن النبي ﷺ هو من فقهه الفقه، وأصل الأصول، وقعد القواعد، وفسر التفاسير وحدث الحديث بتفاصيل دقائق السيرة.

النبي ﷺ قائد القادات وسابق للمقاتلين والمحاربين في الشؤون الحربية والوسائل العسكرية، فاز بالسبق العسكري وبز قادات العالم فسير السرايا والغزوات وقطع مجاهداً في سبيل فيافي وميادين القتال وتجاوز نكبات الطرقات وسائر العقبات. تمثل الهجرة النبوية خارطة الطريق لنصرة الدعوة الإسلامية، حددت المعالم ورسمت أبرز الصور الحقيقية والموجزة التي تثبت أن الإسلام دين طيار سريع الانتشار ففي أقل من ربع قرن من الزمان فشت دعوة الإسلام ودانت البشرية بأفضل التعاليم التي أرست أسس السلام العالمي، وحققت أبرز النماذج في الإصلاح والأخلاق في محاور وأطر العلاقات الدولية والتسامح، كانت بمثابة بوابة الدخول وفخر كل البشرية بانتساب رجل لها كمحمد ﷺ الذي أتى بتشريع هداية للعباد وأمن وسلامة كافة للبلاد.

الهجرة الأهمية والأسباب: أهمية الهجرة:

تعتبر الهجرة النبوية نقطة تحول في حياة الإسلام والمسلمين، فهي الفيصل الحاسم بين فئة آمنت بربها وأخرى كافرة، بها تحولت حياة المسلمين بالرقى في الإيمان والنصرة في ميادين الجهاد والدعوة الإسلامية. كانت الدعوة سرية وفي أضيق مكان فارتقت الدعوة إلى الجهرية على أوسع ما تكون من الانتشار وبأقوى عناصر القوة ووسائل التمكين.

وكانت حياة المسلمين يغلب عليها الضعف في المواقف والإحجام عن المواجهة،

فتحولت حياتهم بالهجرة إلى مراتب القوة وإعلاء كلمة الله. كانوا في جهل مظلم بحكم موروث العادات الجاهلية والأعراف البالية، فأصبح المسلمون علماء وفقهاء وازدانت مجالسهم بمنابر العلم والثقافة الإسلامية، مزقتهم الخلافات والعنصرية وأكلتهم نيران الحروب بحكم العصبية إلى القبيلة وهي السلطة السائدة، وبعثة النبي ﷺ انطفأت الحروب المتقدمة وجاءت الهجرة قنطرة العبور وأصبح المسلمون ساسة وقادة فتحوا الفتوح وحركوا التاريخ وقادوا العالم.

وكانت الهجرة مفتاح لحياة الاستقرار والأمن والسلام، تعتبر أول اللبنيات في ظهور صلح الحديبية ذلكم الفتح الذي أتاح للمسلمين القيام - بفضل الهدنة - بنشر الدعوة الإسلامية، ومضاعفة الجهود لدفع مسيرة الدعوة، فما فتح في الإسلام فتح كان أعظم من (صلح الحديبية) وقد دخل في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك.

وتغلبت على حياة الناس في مكة الجوانب المظلمة، وانتشرت العادات السيئة من خمر وميسر، انتشرت الرذائل بكل صورها، وغابت الفضائل عن حياة الناس وهاجر المسلمون فتحولت حياتهم إلى الإشراق وسمو الأخلاق، وسادت الفضائل والإيثار والمحبة، وكان الفقر والعوز سمة الحياة ومظهر غالب عموم المسلمين قبل الهجرة من العيش الكريم، فزاد من ثروة المسلمين بعد الهجرة بدخولهم سوق المدينة فباعوا واشتروا، وامتنهوا أشرف وسائل كسب الرزق في الزرع والضرع، فنمت أموالهم وتكاثرت ثرواتهم وتسابقوا بها بين يدي النبي ﷺ ينفقونها لإعداد المغازي والجهاد.

وبهذه المفاهيم تعتبر الهجرة نقطة تحول في حياة المسلمين، وفتح الفتوح الذي غير مظاهر الحياة، ومهد لقيام الحضارة الإسلامية في العصر العباسي الأول، حيث أنشئت أول جامعة في العالم (دار الحكمة)، وظهور العلوم وتصنيفها وبداية التدوين الذي صاحب قيام المذاهب الفقهية في الإسلام. وتبرز أهمية الهجرة في أنها فتحت أبواب المسارعة في الطاعات وقبول سائر العبادات {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُنِّيَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} آل عمران : 195.

أسباب الهجرة:

العمل بالأسباب شرع واجب، وترك العمل بالأسباب فسوق، والاعتقاد في الأسباب كفر لأن الله هو مسبب الأسباب وفاعل الأفعال {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} الأنفال: 17 .

وكان النبي يعمل بالأسباب ثم يتوكل على الله شعاره في ذلك: التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، وقد تجلت قيم التوكل على الله واضحة في أحداث الهجرة أوسع ما يكون التجلي، حيث أعد النبي ﷺ خارطة طريق متعدد الوسائل ثم أسند الأمور إلى الله، فجاءت المعية الإلهية وتتبعته مظاهر التأييد، فكان الإمداد بالجنود المرئية منها وغير المرئية، ومن أبرز أسباب الهجرة:

الابتلاء والاضطهاد والتعذيب:

أصاب المسلمين في مكة التعذيب والأذى بأيدي الكفار في وقت لم يؤذن لهم بالقتال، وفي مكان محرم فيه القتال، وكانت فئة الموالي هم أكثر من تعرضوا لأشد العذاب.

وجود حماية للدعوة خارج مكة:

ومع تتابع أعمال الدعوة خلال المواسم وعقد بيعتي العقبة مع أهل المدينة من الأوس والخزرج تعزز وضع المسلمين بوجود حماية للدعوة تمكنها من السير في طريقها، يفهم ذلك من نصوص العقبة الثانية التي تعد أعظم وأهم الاتفاقيات في تاريخ الإسلام.

تكذيب كبار زعماء قريش ومعظم عامتهم:

عارض الكفار الدعوة الإسلامية معارضة شرسة اتبعوا في ذلك شتى أساليب المعارضة ، فأتوا الى أبي طالب وطلبوا منه كف ابن أخية عنهم ثم هددوا بالمنازلة، واتهموا النبي ﷺ بالاتهامات الباطلة : زعموا أنه مجنون , ساحر, كذاب , يأتي بأساطير الأولين , وتارة يرغبون وأخرى يرهبون ويساومون حتى إذا فشلوا تماماً أفلسوا واعتدوا على النبي ﷺ والمسلمين في أجسادهم والموالي والمستضعفين ، ولهذا سارع المسلمون الى الهجرة .

مخافة الفتنة في الدين:

سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن الهجرة فقالت: (كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه الى الله تعالى وإلى رسوله مخافة يفتن عليه) ⁽¹⁾.

الإذن للمسلمين بالقتال :

كان المسلمون في مكة يبتغون وجه الله تعالى ويتحملون في سبيله شتى صور الإيذاء الحسي والمعنوي حتى نزل عليهم الإذن بالقتال على من بغى عليهم قال تعالى: {إِذْ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} سورة الحج - 39- 40 .

يفهم من جملة هذه الأسباب أن الإسلام لا بد له من دولة تحميه، ولا يتصور وجود دولة بدون أرض تقوم عليها، ورعية تسمع لقائدها وتطيع فكانت بيعة العقبة الثانية هي الدليل إلى الهجرة إلى المدينة.

التخطيط والإعداد والتأييد بالمعجزات التخطيط للهجرة:

التخطيط مبدأ تشريعي أقره النبي ﷺ وعمل به في سائر تحركاته وغزواته وهو يعني: الاستعداد في الحاضر لما يحدث من مواقف في المستقبل. قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} القصص: 77 . وفي قصة سيدنا يوسف دليل على العمل بالتخطيط بإعداد موازنة بين الإنتاج والاستهلاك فيما يسمى بالأمن الغذائي في القرآن الكريم قال تعالى: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ} سورة يوسف: 47.

فكان النبي ﷺ يضع الأسباب ويعد العدة ثم يتوكل على الله ، فأعد للهجرة كل الإعداد وكامل الاستعداد ومن ذلك:

◇ اختار الفدائي الشجاع الذي ينام على فراشه للتمويه ليلة الهجرة وطمأنه أنه لا يمسّه شيء فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفي ذلك منقبة له من جملة عظيم المناقب التي خصّ النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب

- رضي الله عنه وأوصاه أن يتخلف وراءه في مكة كي يسلم الودائع والأمانات.
- ◇ اختار صاحب وكان أبوبكر الصديق رضي الله عنه يصحبه في الهجرة
- ◇ وفي خطة خروجه إلى الغار اختار اتجاه الغار من الناحية الجنوبية الغربية من مكة زيادة في التمويه.
- ◇ حدد أن يمكثا في الغار ثلاثة أيام، والدلة في ذلك شدة في التخطيط والإحكام فبعد هذه المدة الزمنية سيخف الطلب في البحث عنهما من جانب الكفار .
- ◇ استأجرا رجلاً دليلاً ماهراً عارفاً بالطرق وهو عبدالله أرقُد (أريقيط) واستكتماه الخبر وكان رجلاً كافراً.⁽²⁾
- ◇ أمر أبوبكر ابنه ومولاه وابنته أسماء بأعمال كلفهم بها: فكان عبدالله بن أبي بكر يأتي إليهما سراً بأخبار الكفار، وأسماء تأتيهما بالطعام كل مساء وعامر بن فهيرة يرعى بالأغنام نهاراً في نواحي الغار وحوله كي يشربا من الألبان ويمسح آثار عبدالله، كما أمر أن يصحبهما في الهجرة كي يقوم بالخدمة.⁽³⁾
- فكان صنيع أبي بكر في الإعداد والاستعداد للهجرة وفقاً لمراد النبي صلى الله عليه وسلم في التخطيط التام، فالؤمن القوي خير وأحب لله من المؤمن الضعيف، ولما حان وقت الانطلاق إلى الغار كان أبو بكر يمشي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة ثم خلفه أخرى، ويعود أمامه خوفاً عليه، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك⁽⁴⁾، ولما وصلا إلى فم الغار قال أبوبكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبريء لك، فدخل الغار وتحسس ونظف وأعد ثم قال: أدخل يا رسول الله⁽⁵⁾.
- تسابق المعجزات إلى النبي ﷺ:**
- أيد الله النبي ﷺ بكم لا يحصى ولا يعد من المعجزات وخوارق العادات ودلائل النبوة وبراهين الرسالة تكريماً لقدر النبي صلى الله عليه وسلم وتشريفاً وهو أولى وأحق بهذا التعظيم.
- والحق أن معجزات النبي ﷺ لا تحصى ولا تعد بدليل: { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ { الضحى: 5 }. والمعجزة عطاء إلهي جاء بصيغة الفعل المضارع الذي يفيد الصيرورة والديمومة والاستمرارية، وفي أحداث الهجرة كانت المعجزات تتسابق إلى درب

النبي صلى الله عليه وسلم والعناية الإلهية تحيط به، والعناية الربانية تتلطف فما بارحت آيات التأييد ساحة النبي صلى الله عليه وسلم ولا فارقت دربه.

ركبت قريش في البحث عن النبي صلى الله عليه وسلم كل جهة، مشطت الطرق وتتبع الخطى بلا نتيجة، وقد أعماهم الله، جمعوا قصاصي الأثر من كل القبائل واجتهدوا في تتبع الآثار حتى وقفوا عند فم الغار فكانت العناية الإلهية تحيط بهما وأبوبكر شديد الخوف على رسول الله ويقول: أتونا يا رسول الله، فيطمئنه رسول الله بقوله: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)⁽⁶⁾. ثم يزيده اطمئناناً: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} التوبة: 40، وهناك دلالة عظيمة في لفظ (معنا) وهي تفيد الجمع لا المثنى، أي أن النبي ﷺ أدخل أمته جميعها في المعية الإلهية. ونزل الوحي يؤيد النبي ﷺ يعزه وينصره بالمعجزات والجنود، ويحيط الكفار ويملاً حياتهم خيبة وحسرة وخسارة، قال تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} التوبة: 40.

جمعت الآية كم من المعجزات ومظاهر التأييد: النصر من الله للنبي ﷺ، وإذهاب الحزن، وإنزال السكينة والطمأنينة، والتأييد الإلهي بالجنود غير المرئية (الملائكة والجن) وإحباط الكفار وتشيت جهودهم في البحث عن النبي ﷺ وصاحبه لدرجة حط مقامهم في السفل، وأعلى كلمة الله والإسلام يعلو ولا يُعلى عليه والعزة لله وللرسول وللمسلمين.

ظهرت المعجزات المرئية عياناً حماية للنبي ﷺ وهو صاحبه في الغار حيث نسجت العنكبوت وباضت الحمامة⁽⁷⁾. وكانت حيوانات ضعيفة ووديدة، ولم تكن ثعابين سامة أو نسور جارحة!! وفي ذلك دلالة: فإن الكفار أعدوا خطة محكمة لقتل النبي ﷺ ليلة الهجرة، ينفذها خمسون من الفتيان المدججون بالسلاح، فكما أعدتهم هذه القوة الضاربة نقابلها ونواجهها بحيوانات ضعيفة هالكة وتغلبها!! وبذا أعمى الله المشركين وأفسد مسعاهم، قال تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} سورة الأعراف: 198.

كان الإمام البوصيري شاهداً وموثقاً لمعجزات الهجرة حيث أفرد فصلاً جامعاً من قصيدته (البردة) مبيناً مظاهر التأييد ودلائل النبوة، قال (8):

وما حوى الغار من خير ومن كرم وكل طرف من الكفار عنه عم
فالصدق في الغار والصديق لم يرما وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمامة وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن كل مضاعفة من الدروع وعن عالٍ من الأكم
ولما انقطع الطلب في ثالث يوم لهما في الغار جاءهما الدليل عبدالله بن أريقط ليلاً وسار بهما إلى المدينة، فأمره النبي ﷺ أن يسير بهم في طريق متعرج وفي ذلك دلالة: كي يخفف نسبة الاحتمال خشية أن يلتقي بهم أحد يسير في الطريق ويكشف الأمر لكفار قريش!!

فساروا حتى أوان القيلولة رفع الله لهم صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس، فسوى أبوبكر بيده مكاناً تحتها وبسط عليه فروة وطلب من الرسول أن ينام (9). ولحق بهم سراقه بن مالك ولكن العناية الإلهية والوقاية الربانية هزمتهم فعثرت به فرسه وأيقن أن رسول الله ﷺ قد منع منه، فرجع وهو حارس بعد أن خرج طالباً (10)!!
وصل ركب النبي ﷺ إلى قدير حيث أم معبد عاتكة بنت خالد بن منقذ الخزاعية، ونزلا عندها فنزلت البركة بأمر عبد وغمرتها في بيتها وآلها ومالها، وكانت معجزة الشاة (11)، التي خلفها الجهد فحلبت ببركة مس النبي ﷺ لها بمسح ضرعها وظهرها وسَمَى، وما مسَّ رسول الله ﷺ شيئاً إلا أظهرت فيه آثار البركة وشفى به المريض من مرضه!! فحلب منها حتى علت الرغوة!! فشربوا حتى رووا، ثم حلب في الإناء ثانية حتى علت الرغوة وغادره وارتحل. وجاء أبو معبد واسمه أكثم بن جَوْن في المساء يسوق أعنزاً عجافاً، ورأى اللبن فسأل أم معبد؟ فقالت: مرّ بنا رجلاً مباركاً، قال: أوصفيه، فكان وصف أم معبد للنبي ﷺ.

وسار ركب النبوة تغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة فلما وصلوا العرج استفسروا عن الطريق فدلهم أحد القاطنين وبين لهم أن على الطريق القريب لسان من قبيلة أسلم يقال لهما (المهانان)، ولم ييال الرسول ﷺ بهما، وعندما لقيهما عرض عليهما الإسلام فأسلما، وسماهما (المكرمان) وطلب منهما القدوم عليه في المدينة (12).

ولقى ركب الهجرة عند الغميم بريد بن الخصيب الأسلمي، خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر أملاً في الفوز بالجائزة المعلنة من قبل قريش، وعندما التقى برسول الله ﷺ وحدثه في أمر الإسلام أسلم، وأسلم معه زهاء ثمانين بيتاً من قومه⁽¹³⁾.

الوصول إلى المدينة:

الترحاب والإكرام بمقدم النبي ﷺ:

وصل النبي ﷺ إلى (المدينة) دار الهجرة، وكان اسمها (يثرب) فغير النبي ﷺ اسمها إلى المدينة، وكان من عظيم خلق النبي ﷺ تغيير الأسماء الجاهلية بأسماء حسنة، منهجه ﷺ للإصلاح والتهديب، فغير أسماء كثير من الصحابة بعد إسلامهم إلى أسماء حسنة، فإنه ﷺ يحب الاسم الحسن ويكره القبيح. ومن ذلك أنه غيّر اسم يثرب فهو من التثريب والتوبيخ والملامة وهذا أمر مستقبح إلى اسم المدينة، ولها أسماء كثيرة فإن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى وعظمته، أورد لها ياقوت الحموي في معجم البلدان كثيراً من الأسماء منها: طيبة، وطابا، والمسكنة، والجابرة، وآكلة البلدان ... وسماها القرآن المدينة، والبلد، وأرض {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} سورة النساء : 97. واختصت المدينة بالفضل والبركة ففيها خير الوري ﷺ، والخلفاء الراشدون، والعشرة المبشرون بالجنة، والبقيع، والمسجد النبوي الشريف وفيه روضة من رياض الجنة، وبجوارها وقعت أحداث أول ثلاث غزوات في الإسلام : بدر وأحد والخندق. وسمع المسلمون في المدينة بمقدم النبي ﷺ فساروا في السلام والتكبير فرحاً بالنبي ﷺ ترحيباً واحتفاءً لا مثيل له، وشهدت المدينة ثلاثة استقبالات في ذاك الاحتفال: استقبال عام شارك فيه جمع أهل المدينة، واستقبال خاص بحي بني النجار (وهم أحوال جده عبدالمطلب) حتى النساء وذوات الخدور صعدن على أسطح الأجاير وهن ينشدن⁽¹⁴⁾.

نحن جوالي من بني النجار * يا حبذا النبّي من جار :

وحاز استقبال أبي أيوب الفضل والشرف فكان استقبالا خاصا! حيث حمل رحل النبي ﷺ لما بركت به الناقة المأمورة، فقال النبي ﷺ : « المرء مع رحله »⁽¹⁵⁾. وتنافس الأنصار على المهاجرين واقترعوا فيهم بالسهمين، حيث لم

يكن بأيدي المهاجرين شيء، فقد تركوا أموالهم خلفهم، ولم يكونوا أهل زراعة ولكن الأنصار أعطوهم فضل النخل والأرض ليعملوا فيها بفضل ثمارها حتى استغنوا لما فتحت خيبر⁽¹⁶⁾. وما كانت تمر ليلة إلا على باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة من الصحابة الأنصار يتناوبون في حمل طعامهم إلى رسول الله ﷺ حتى تحول من منزل أبي أيوب إلى داره⁽¹⁷⁾.

أسس بناء المجتمع الإسلامي:

يفهم من نصوص العقبة الثانية إلزام الأنصار بحماية النبي ﷺ، ولهذا السبب هاجر المسلمون بما فيهم رسول الله ﷺ حيث المكان الذي يحمي الدعوة الإسلامية ويمكنها من السير في طريقها. وبوصول النبي ﷺ إلى المدينة شرع في إرساء أسس المجتمع، وبنى المسجد حيث بركت به الناقة وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين من بني النجار⁽¹⁸⁾. ولما كان بعد قدوم النبي ﷺ للمدينة بخمسة أشهر آخى بين المهاجرين والأنصار⁽¹⁹⁾، وكانوا تسعين رجلاً من كل طائفة خمسة وأربعون، على الحق والمواساة والتوارث إلى زمان غزوة بدر أنزل الله ... وألو الأرحام ... ، ودلالة هذه المؤاخاة: أراد النبي ﷺ أن يذهب عنهم وحشة الغربة ليستأنسوا من مفارقة أهل والعشيرة، وليشد بعضهم أزر بعض، فلما أعز الله الإسلام واجتمع الشمل، وعرفوا وسائل اكتساب الرزق أبطل الله التوارث بالمؤاخاة وأبقى أخوة المؤمنين، قال تعالى: {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ} سورة الأنفال: 75. وعندما استقر النبي ﷺ بالمدينة أعد (وثيقة المدينة) لتنظيم العلاقات بين أهل المدينة، وتعد هذه الوثيقة أقدم دستور مكتوب في الإسلام. وبنزول آية الإذن بالقتال شرع الله الجهاد في الوقت المناسب وأعد النبي ﷺ النشاط العسكري والسياسي فأرسل السرايا وعقد الأحلاف إعداداً للقوة لرد عدوان قريش، فكانت غزوة بدر الفرقان يوم التقى الجمعان. وتتابع مسيرة الجهاد بأحد الأحزاب وبني قريظة ... وفي السنة الخامسة من الهجرة وقع صلح الحديبية⁽²⁰⁾ الذي أتاح للمسلمين مضاعفة جهودهم لنشر الإسلام والتفرغ ليهود خيبر والاستفادة من الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وآمن الناس بعضهم بعضاً. وقعت على إثر هذا الصلح تطبيقات عملية لمبدأ الشورى في الإسلام، حيث استشار النبي ﷺ في الإغارة

على ذراري المشركين الذين يساندون قريشاً، كما استشار أم سلمة في أمر الناس عندما أبطؤوا في التحلل⁽²¹⁾.

نزلت سورة الفتح {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} سورة الفتح: 1 . قال عمر رضي الله عنه متعجباً: أفتح هو !! فقال له الرسول ﷺ : نعم فطابت نفسه ورجع⁽²²⁾ وقال عنها الرسول ﷺ : (ولقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس)⁽²³⁾ . وفرح المسلمون بذلك فرحاً غامراً، وزالت عنهم الغموم والهموم حينما أدركوا أسباب الهجرة وكانت هذه من بعض نتائجها، وبين لهم أن الخير في التسليم لأمر الله تعالى.

وتتابعت الفتوح غزوة تليها غزوة وسرية تلو سرية حتى كان فتح مكة زادها الله شرفاً، وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله دينه ورسوله وجنده وحرمه الأميين وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً⁽²⁴⁾ .

جاء النبي ﷺ القائد يقود كتائب الحق لما نقضت قريش العهد الذي وقّع بالهدنة. ودخل رسول الله ﷺ مكة من أعلاها من جهة كداء خاشعاً شاكراً يقرأ سورة الفتح ويرجع في قراءتها وهو على راحلته⁽²⁵⁾ . وأمر النبي ﷺ بتطهير البيت الحرام وإزالة الأصنام عنه حيث شارك بنفسه بيده في تكسيورها، كما أرسل بعوثاً لهدم العزى ومناة فهدمت، وأعلن ﷺ العفو عن عامة أهل مكة فيما عرف في التاريخ بـ (الطلاق)، وبين حرمة مكة وأنها لا تغزى بعد الفتح وحرم القتل والسبي فيها. وأمر بلالاً أن يؤذن فعلاً على ظهر الكعبة فأذن عليها، واجتمع الناس لمبايعة رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله.

وكانت هذه المبادرات صورة حقيقية للتحويل الذي أحدثته الهجرة في حياة المسلمين، وتجلت أبرز نتائج الفتح أن أخذت قبائل العرب وأفراده يبادرون بإسلامهم، لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش، باعتبار قريش زعيمة العرب وحامية البيت، فلما فتحت مكة ودانت قريش لرسول الله ﷺ عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ وعداوته، فدخلوا في دين الله أفواجا كما قال الله تعالى:

{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}

سورة النصر: (1-2) .

النتائج :

- تعتبر السيرة وصفاً لدقائق تفاصيل حياة النبي ﷺ مؤكدة بالحقائق العلمية التي ثبتت بالنصوص والدلالات الحكيمة، فأفرزت لنا العظات والعبر والدروس المستفادة.
- كانت الهجرة نقطة تحول في حياة المسلمين، غيرت معالم الحياة وبينت المواقف ورسمت صورة حقيقية وخارطة طريق لمستقبل الإسلام، وساعدت على انتشار الدعوة الإسلامية على أوسع نطاق.
- المعية الإلهية والإسعاف والإلطف للنبي ﷺ ميزة ظلت ملازمة له، المعجزات تترى والتأييد بخوارق العادات تتسابق على درب النبي ﷺ، جنود مرئية وجنود لم يروها.
- العمل بالأسباب المادية تشريع أقره النبي ﷺ، يقضي بوضع كل الاستعدادات المادية الممكنة والوسائل المتاحة، ثم التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب.
- التخطيط والتكتيك الاستراتيجي مبدأ استخدمه النبي ﷺ ، دلالة على قوة المؤمن وكياسته، فلا يدع فرصة للحظوظ العمياء والخبط العشوائي، وبذا أصبح التخطيط مشروعاً طبقه النبي ﷺ في مغازيه سنة مروية وأسوة نبوية.
- تحقيق العدالة الإلهية لمن هاجر إلى الله ورسوله بقبول الطاعات والعبادات لكل المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، فإن الله لا يضيع من أجورهم شيئاً.
- وجوب التصديق التام والتسليم المطلق بالمعجزات النبوية، فالفاعل هو الله تعالى الذي لا يعجزه شيء، ولا تخرج كل الممكّنات عن طوع قدرته وفاعليته، فلا سبيل للتعرض والانكار لأفعال الله تعالى، فإن المعجزات باب من الأبواب المغلقة تماماً أمام العقل، لمحدودية سعته ولعلو شأن الله وقضائه الذي لا يكيف ولا يقاس.

المصادر والمراجع:

- (1) البخاري والفتح (82-81/15 / ح: 3900) .
- (2) المصدر السابق (92 / 15 / ح: 3905) .
- (3) نفس المصدر .
- (4) البيهقي ، دلائل النبوة 2 / 476 .
- (5) نفس المصدر .
- (6) البخاري / الفتح (17 / 205 / ح: 4663) .
- (7) الإمام أحمد / المسند 5 / 87 / والهيثمي / المجمع 3 / 231 .
- (8) الإمام البوصيري / الكواكب الدرية في مدح خير البرية من : 50 - 51 .
- (9) البخاري / الفتح (12 / 113 / ح: 3917)
- (10) المصدر السابق .
- (11) أخرج نصه الرسول ﷺ وأم معبد الحاكم في المستدرک 3/9 وفي السيرة الحلبية 2/224 / ورواها البيهقي في دلائله وابن كثير - وغيرهم .
- (12) الهيثمي / المجمع 6/55 ، أخرج القصة عبدالله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند 4/74 .
- (13) الإمام أحمد / المسند 5/346 .
- (14) الطبراني في الصغير / 780 ، والسيرة الحلبية 2/246 .
- (15) ابن سعد / الطبقات 1/236 - 237 .
- (16) مسلم / النووي 12/99 .
- (17) رواية ابن سعد ، وقد ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية 3/222 .
- (18) البخاري / الفتح (15/101 / ح: 3906) .
- (19) ابن هشام 2/150 .
- (20) الحديبية ، بئر تقع على بعد اثنين وعشرين ميلاً شمال غربي مكة ، تعرف اليوم بالشميسي . د. مهدي رزق الله / السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية .
- (21) البخاري / الفتح (11/178 / ح: 3731) .
- (22) مسلم (3/1412 / ح: 1785) .
- (23) البخاري / الفتح (16/58 / ح: 4177) .
- (24) القسطلاني / المواهب اللدنية 1/369 .
- (25) البخاري / الفتح (16/123 / ح: 4281) .

المصادر والمراجع :

- (1) البخاري: أبو عبدالله محمد بن اسماعيل - الجامع الصحيح ، المكتب الإسلامي 1399هـ - 1809م .
- (2) ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، القاهرة 1398هـ / 1978م .
- (3) مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري - صحيح مسلم ، الرياض 1400هـ - 1880م .
- (4) النووي : أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف - شرح صحيح مسلم ، دار الفكر - بيروت .
- (5) البيهقي : أحمد بن الحسين بن علي - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة - بيروت ط (1) 1405هـ - 1985م .
- (6) ابن حنبل : أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل - المسند ، تحقيق أحمد شاكر - مصر 1365هـ / 1946م .
- (7) الحلبي : علي بن برهان الدين الحلبي - السيرة الحلبية (انسان؟؟؟ في سيرة الأمين المأمون) .
- (8) القسطلاني : أحمد بن محمد القسطلاني - المواهب اللدنية - المكتبة التوفيقية .
- (9) الهيتمي : أبوبكر نورالدين علي بن أبي بكر بن سليمان - مجمع الزوائد ، بيروت ط (2) 1387هـ / 1967م .
- (10) د.مهدي رزق الله : السيرة النبوية في مفرد المصادر الأصلية - مركز الملك فيصل للبحوث - الطبعة الأولى 1412هـ / 1992م .